(الفصل الثالث عشر)
"رحلة فى الواحات"

بعد مرور ستة أشهر أخرى على وجود ناردين ونور الدين بالواحات، تمت خلالها زراعة أرض ناردين بأندر أنواع الزهور والنباتات الطبية والعطرية، كما تمت زراعة أرض نور الدين بأجود أنواع الزيتون وبعض أنواع الفاكهة.

وفى خلال تلك الأشهر، كانت ناردين قد تعرفت إلى الشيخ حامد، ذلك الشيخ الذى يقطن على بعد أمتار قليلة من سكنهما، أصبح كلاهما بمكانة أبناء له، فلقد توطدت علاقتهما به، اعتبراه والدًا لهما، كانا يمضيان معظم أوقاتهما بصحبته في داره، يستمتعان بحديثه عن حكاياته وحكايات البشر التي كان يرويها لهما.

فى خلال هذه الفترة، لم يكن لناردين أحد يسأل عنها سوى خالها،الذي كان يتابعها ويعرف أخبارها من مدير المشروع، أما والدها فكان لا يهتم، يمرعليها ما يقرب من الشهر أو الشهرين إذا سأل عنها بمكالمة هاتفية سريعة، ثم سرعان ما ينسى وجودها ويعود لزوجته وولده؛ اللذين يستحوذان على كل وقته وتفكيره.

أما أسرة نور الدين فكانوا جميعهم الأم والأب والأخوة دائمين السؤال عنه عبر الهاتف، وكان نور الدين يحدث ناردين دائمًا عن أمه وحنانها، وأبيه ورجولته وأخوته، فكانت تحسده على تلك الأسرة الدافئة التي لطالما تمنت وجودها فى أسرة مثلها، كان نور الدين يخفف عنها ذلك الشعور بتعويضها بأنها بالفعل أصبحت من أسرته؛ فلقد عرفها إلى أبيه وأمه وأخوته عبر الهاتف، كانوا جميعًا يحدثونها ويسألون عن أخبارها، تمامًا كما يفعلون مع نور الدين كانت سعيدة جدًّا بهذه الأسرة التي احتوتها على الفور دون أن تراها؛ فأحبتهم وأحبوها.

فى أحد الأيام أتى نور الدين وطرق باب ناردين ومن خلف الباب صاح:

- **أيتها الكسولة النائمة، هيا استيقظي، استعدي فسوف نخرج الآن.**

أجابته في تثاؤب وهي نائمة:

- **ماذا؟ الآن؟ أين سنذهب؟ أوه، أريد أن أنام يا نور الدين، هيا اذهب الآن نخرج غدًا، هيا دعنى الآن وكف عن إزعاجي.**

فقاطعها من خلف الباب بصوت حازم وجاد قائلًا:

- **إن لم تستيقظي الآن، فسوف أدخل وأوقظك أنا بطريقتي.**

ثم تابع ضاحكًا:

- **وأنتِ تعلمين ما هي طريقتي، أليس كذلك؟**

فنهضت على الفور وفي ارتباك أجابته:

- **كلا، انتظر، انتظر، سوف أنهض وحدي.**

ثم ضحكت قائلة:

- **يا لك من ماكر حقًّا، هيا، اذهب أنت وأنا سوف أستعد الآن، لكن إلى أين سنذهب الآن؟ فالساعة قاربت على الثامنة مساءً.**
- **أوليس عيبًا أن تخافي وأنت بصحبتي؟**

فأجابته وهى تطل برأسها من خلف الباب وتدفع وجهه بعيدًا بيدها في حركة مازحة قائلة:

- **بل كل الخوف أننى بصحبتك.**

فأمسك بيدها بحركة مفاجئة، وهو يبتسم وينظر فى عينيها بنظرات عميقة قائلًا:

- **إذن فأنتِ تخافين مني؟ ومن وجودك معي؟**

فردت وهى تسحب يدها من يده في حركة مفاجئة مماثلة وبنفس النظرة وتعلو شفتيها ابتسامة ساحرة قائلةً:

- **الأصح أنني أخاف من نفسي عندما تكون قريبة منك، فهي تعصاني، تتمرد فتقوى بكَ عليَّ، تنفلت مني فلا أستيطع السيطرة عليها.**

ثم أطالت إليه النظرات؛ فتجمد هو مكانه وعلت شفتاه ابتسامة زادته وسامة، في حين أن بريق عينيه قد ازداد فزادهما جمالًا فوق جمالهما، وعلى حين غفلة أغلقت ناردين الباب قائلةً:

- **هيا، لا تعطلنى، فسوف أستعد لنرى إلى أين ستأخذنى؟**

مع العلم أننى أذهب معك إلى آخر الدنيا وأنا معصوبة العينين؛ فرد بعد لحظات من صمته، وبصوت خافت قائلًا:

- **وأنا أذهب معك إلى خارج الكرة الأرضية، إلى عالم الخيال، إلى دنيا الهوى، إلى مالانهاية.**

سمعته من خلف الباب فابتسمت وهي تنظر إلى المرأة قائلةً:

- **يا ربي، هل ما أعيشه هذا واقعًا؟ أم إنه خيال؟ حلم؟ يا ربي، إن كان واقعًا فلا يتغير، وإن كان خيالًا، أو حلمًا فلا توقظني منه أبدًا.**

ثم ارتدت ملابسها واستعدت للخروج، وكان نور الدين بانتظارها أمام الباب، فخرجت قائلةً:

- **ها أنا قد استعددت، فإلى أين ستأخذنى؟**

وهو يفتح لها باب السيارة مازحًا:

- تفضلي يا سيدتي، فسوف أصطحبك في رحلة إلى الواحات؛ فسألته وهي تركب السيارة في سعادة قائلةً:

- حقًّا؟ حسنًا، حسنًا، وأنا أريد هذه الرحلة؛ فسوف تكون رحلة ممتعة، وخاصة أنها برفقتك.

فابتسم نور الدين ثم قال:

-حسنًا هيا بنا ننطلق فسوف نمضي الليلة وغدًا كله بالخارج فليكن بعلمك، فهذه أول مرة نخرج فيها خارج المزرعة منذ أن أتينا فلنستمتع الليلة وغدًا؛ فلقد أعددت لك برنامجًا سياحيًا سوف يبهرك. انظري إلى الخلف فلقد أعددت كل لوازم الرحلة من أطعمة ومشروبات وكل شيء جاهز، لا تقلقي ستكون رحلة ممتعة إن شاء الله.

فنظرت ناردين في فرح ثم قالت:

- **أنت رائع حقًّا يا نور الدين فكل خطوة معك بفرحة وكل يوم معك بسعادة. أين كنت منذ زمن؟**

فأمسك بيدها في حنان، ثم طبع قبلة على كفها في رقة ثم قال:

- **لا يهم أين كنت؟ المهم الآن أين أنا؟**

ثم ابتسم وانطلق بالسيارة لتبدأ الرحلة.

في الطريق أدارت مسجل السيارة على أغنيات "فيروز" التي تعشقها وهي تغني معها، وتنظر إليه لتهديه كلمات الأغنية، وكانت الأغنية (سألتك حبيبى لوين رايحين) وأخذت تغني معها ونور الدين ينظر إليها في سعادة.

بعد فترة من الزمن، توقف أمام مكان يبدو أنه مجمع لمساكن قديمة أثرية، خالٍ من السكان وبه مسجد ومئذنة عالية، المكان رائع، عبارة عن مكان واسع به سلم يؤدى إلى القمة، وبالقمة توجد بيوت صغيرة مبنية من الطين، والسقف من الجريد، مكان بدوي بدائي أثري، لكن لا يسكنه أحد. هبط نور الدين من السيارة ثم قال:

- **تعالي، لا تخافي؛ فرحلتنا سوف تبدأ من هنا ما رأيكِ؟**
- **سوف نبيت ليلتنا هنا، وفي الصباح الباكر نتابع رحلتنا.**

نزلت ناردين وهي مذهولة من روعة المكان وجماله، لكنها لم تستطع إخفاء خوفها الذي بدا جليًا من كون المكان مهجورًا؛ فنظرت إلى نور الدين في خوف قائلة:

- **ماذا؟ هل سنبيت هنا؟ كلا؛ فأنا أخاف جدًّا من هذا المكان؛ ربما يكون مسكونًا من الجن يا نور الدين، لا، لايمكن.**

فضحك ثم قال:

- **المهندسة المتعلمة تؤمن بهذه الخرافات!**

فقالت بصوت مرتجف:

- **نور الدين، أنا أتحدث بمنتهى الجدية، لست بمازحة الآن، أرجوكَ هيا نذهب من هنا.**

فأمسك نور الدين بيديها مطمئنًا إياها ثم قال:

- **تعالي، لا تخافي، هل تعلمين ما هذا المكان؟**

فأجابته في توتر:

- **لا**

فأجابها:

- **هذا المكان يسمي جبل الدكرور، وأهل الواحة كل شهر في الثلاثة أيام القمرية يأتون إلى هنا؛ فتجتمع جميع القبائل فيما يسمي بعيد التصالح، وهو مخصص لإزالة الخلافات بينهم؛ لذلك لا تخافي؛ فهذا المكان ليس مهجورًا.**

فسألته في اهتمام قائلةً:

- **و من أين علمت هذه المعلومات يا نور الدين؟**
- **من القراءة، فأنا عاشق للقراءة، ولقد قرأت عن كل شيء يخص الواحات قبل مجيئي إليها؛ لذلك فسوف أكون أنا مرشدكِ السياحي هنا يا سيدتي.**
- **هيا لنصعد إلى أعلى؛ فالمكان بالأعلى أشد روعة وجمالًا.**

أحضر معه بعض الأمتعة والأطعمة، وأغلق السيارة، وصعدا إلى أعلى الجبل حيث البيوت البدائية بالقمة. كانا كلما صعدا درجة ازداد انبهارهما وتعجبهما،

كيف للطبيعة أن تكون بهذا السحر وهذا الجمال الخلاب! حتى صعدا إلى الأعلى، وبالأعلى كان المكان أروع وأجمل بالفعل من رؤيته من الأسفل؛ فذهلت ناردين من روعة الطبيعة، ثم علقت قائلة:

- **ما هذه الروعة؟ هذا خيال، هل يعقل أن يكون على أرضنا مثل هذا الجمال والسحر ولا يعلم به أحد.**

فأجابها نور الدين مصدقًا على كلامها قائلًا:

- **للأسف، فبلدنا حباها الله بالكثير من السحروالجمال والنعم، لكن لا أحد يستغلها حق استغلالها.**

ثم فرش على الأرض بساطًا، وجلس هو وناردين وقد أعد العشاء والشراب، جلسا يتناولان عشاءهما تحت ضوء القمر فوق قمة الجبل، منظرفي منتهى السحر والرومانسية مما دفع ناردين إلى أن تتكئ برأسها على كتف نور الدين وهى تحتضن إحدى يديه بكلتا يديها، وقد اتجهت بنظرها تلقاء القمر،فتبسمت قائلة:

- **لا أصدق ما أعيشه أشعر وكأنني أحيا داخل قصة رومانسية من العصور الوسطى وأنا بطلتها.**
- **لم أكن أحلم يومًا بأنني سوف أعيش لحظة واحدة فقط من هذه اللحظات.**

عانقها نور الدين في حنان وقد احتواها بين ذراعيه ثم تبسم هامسًا:

- **وإني لمثلكِ تمامًا، لم أكن أتخيل بأنني سوف أرى هذه الأيام وأعيش هذه السعادة، لكني أعدك بأنني سوف أصنع من كل يوم، بل من كل لحظة فرح وسعادة وحب؛ فأنت تستحقين ذلك.**

فابتسمت ثم أطبقت على يده بيديها وتنهدت قائلة:

- **أعلم ذلك، أعلم ذلك.**

وهنا وعلى حين غفلة صاح نور الدين متحمسًا:

- **لحظة، لحظة، لماذا لا نتزوج يا ناردين؟ لماذا ننتظر؟ وماذا ننتظر؟**

فالتفتت إليه التفاتة لا شعورية، وقد بدا على وجهها الارتباك والشحوب ثم ردت فى تعجب:

- **نتزوج؟! مهلًا يا نور الدين.**

وقد ازدادت توترًا وكأنها تذكرت يوم زواجها الأول، وما عاشته من ألم، فصمتت للحظات، ثم تابعت:

- **لمَ العجلة؟ فنحن بحاجة إلى بعض الوقت، على الأقل حتى نستقر أولًا، ثم أنه لا بد أن ننتظر حتى نحصد أول محصول لنا، كما أنه لا بد وأن نقوم ببناء منزلنا، ولا بد من...**

فقاطعها نور الدين وقد شعر بخوفها من مسألة الزواج، وفهم ما دار بعقلها، قرأ في وجهها ما دار في نفسها وما تذكرته؛ فأراد أن يخفف عنها ويطمئنها قائلًا:

- **حسنًا، حسنًا ، فلننتظر، لا يهم، المهم أننا معًا، أليس كذلك؟**
- **لتأخذي وقتكِ بكل راحة؛ حتى تكوني مستعدة للزواج بي، لا توجد مشكلة على الإطلاق، فلننتظر.**

ثم ضمها إليه برفق وحنان حتى يطمئنها؛ فعانقته هي الأخرى بشدة وقد شعرت بأنه قد فهمها دون أن تتحدث فهمست اليه قائلة:

- **ما أجملك من إنسان!**

فرد في تلعثم:

- **هيا، هيا لننام الآن؛ فغدًا سوف يكون يومًا مشحونًا بالمغامرات.**

نام الاثنان، كل منهما في فراش على الأرض بجوار بعضهما بعضًاحتى حل ضوء الصباح معلنًا ميلاد يوم مشمس ورائع. استيقظت ناردين بعد أن داعبت وجهها خيوط الشمس الذهبية، فجلست تنظر إلى نور الدين وكان لا يزال نائمًا، تفقدت ملامحه؛ فإذا به وكأنه ملاكًا نائمًا في منتهى الهدوء والوسامة، كأنه طفل صغير بريء الملامح، ظلت على تلك الحالة المتأملة

طويلًا، أخذت تداعب بأناملها وجهه برقة ونعومة محاولة إيقاظه، ثم همست بالقرب من أذنيه قائلة:

- **صباح الخير أميري الوسيم، هيا استيقظ، لقد حل الصباح، هيا أيها الكسول الجميل.**

شعر "نور الدين" بأناملها الرقيقة التي تتراقص على وجهه في خفة ونعومة، ففتح عيناه ببطء، وما أجملها من عينين زرقاوين صافيتين تعكسان لون السماء! ثم نظر إليها بنظرة عشق جلية وأمسك بيديها فقبلهما وهو يجيبها:

- **صباح الخير أميرتي وملاكي.**

ابتسمت في خجول ثم سحبت يديها في سرعة قائلةً:

- **هيا أيها الكسول؛ فأمامنا يومًا طويلًا من المغامرات كما وعدتني.**

فابتسم وهو ينهض قائلًا:

- **حسنًا، أمركِ يا مولاتي، هيا لنذهب.**

فجمع أشياءهما وهبطا إلى السيارة، وانطلقا إلى مغامراتهما.